

الوافي في الوفيات

قال : فلم يكن بعد ذلك إلاَّ - أيام قلائل حدَّثني توفي C تعالى وأكله الدود . وكتب على كتابي جنان الجناس لمَّـا وقف عليه : .

لقد ضمَّ - أجناس الجناس فأطربا ... وأعجزَ من باراه فيها فأتعبا .
صلاحُ لدينٍ اٍ أبدأ بدائعاً ... تروق بألفاظٍ أرقَّـا من الصَّـبا .
يراه بليغ جاء بالمدح سائلاً ... مجيزاً مجيباً قولَه لا مخيِّـبا .
بإنشاده هذا وإنشائه لقد ... به فات من قد فاق فضلاً ومنصِّبا .
فَقُسَّـا إيادي عند ذا الفضل ناقلُ ... ولفظ امرئ القيس البديع هُنَّا هـبا .
ومن شعره لمَّـا أُمسك الأمير سيف الدين كَرَاي المنصور نائب دمشق : .
أنا راضٍ بحالتي لا مزيدي ... وبأن أزال عبدَ الحميدِ .
إنَّـا في أمرٍ كافٍ الملك بالشا ... م عطاتٍ للحازم المستفيدِ .
جاءه بالتقليد أَرْغُون بالأَم ... س وولَّـا وعاد بالتقييد .
ومنه : .

سَلَّابَ المهجَة مندِّي ... بالجفونِ الفاتراتِ .
لم يزور البيت لم يَرَّـا ... م الحشا بالجَمَراتِ .
ومنه : .

وكم سرحةٍ لي في الرُّبى زمنَ الصبا ... أشاهدُ مرأى حسنها متملِّـبا .
ويُسكِرني عَرَفُ الشذا من نسيمها ... فأقضي هوَّـي من طيبه حتفَ أَنفيا .
وأسأل فيها مَدِّسِم الروض قُبلةً ... فيُبِرز من أكمامه لي أيديا .
فإن روضُ زرتُّه متنزَّهاً ... فأبدي لعيني حُسن مرأى بلا رِيا .
غدا الغُصن فيه راقصاً ونسيمُهُ ... يكرِّسُ على من زاره متعدِّبا .
ترجَّـلاتِ الأشجار والماء خَرَّـا إذ ... نسيمُ الصَّـبا أضحى به متمشِّـبا .
تُغَنِّـي لديه الوُرُق والغصنُ راقصُ ... فيعرقُ وجه الأَرْض من كَثرة الحيا .
ومنه : .

فَعُدَّـا نفسك من أهل القبور بها ... فعن قليل إليها سوف تنقلُ .
واذكر مصارع قومٍ قد قضوا ومضوا ... كأَنَّهم لم يكونوا بعدما رحلوا .
يا ليتَ شعري ما قالوا وقيل لهم ... وما الذي قد أجابوا عندما سُئِلوا .
ومن نثره C تعالى يصف قلعة ذات أودية ومحاجر : لا تراها العيون لبعدها إلاَّ -

شَزْرًا ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلاَّ - نَزْرًا . ولا يظنُّ ناظرها إلاَّ - أنَّها طالعة
بين النجوم بما لها من الأبراج ولها من الفرات خندق يحفُّها كالبحر إلاَّ - أن هذا عذبُ
فراتٍ وهذا ملح أُجاج . ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء ولا حرَّ الهواجر وقد توءَّرت
مسالكه فلا يُداس فيه إلاَّ - على المحاجر . وتفاوت ما بين مرآه العليِّ وقراره العميق
ويقتحم راكبه الهول في هبوطه فكأَنَّ - ما خرَّ - من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح
في مكان سحيق .

ومنه في صدر كتاب : وجعله لحقيقة العلياء نفساً وعيناً ولا أعدم الملك منه ناظراً ولا
عينا . ولا زال على الأعداء يرسل من مهايته رقيبين أذناً وعينا . وأغنى بمكارمه من أن
نشيم من السماء خالاً وعينا . أو نَرِدَ من الأرض منهلاً وعينا . وأطلع طلعة لوائه في
الخافقيْن حتَّى تخال لشمس عينا . وسيَر ركائب ذكره في الآفاق لا تشتكي أَيْناً ولا
عينا . وأقام ميزان القسط بين الرعايا لا يجد فيه عيناً ولا عينا . واستبعد لخدمته كلَّ -
أصيدَ من الملوك لكل جفيل قلباً ولكن محفِل عينا . وأهلك كلَّ - عدوٍ له وحاسد تارة
فجأةً وتارة عينا . وأنطق لسانَ كرمه للأولياء بنون وعين وميم إذْ كتب سواه ميماً
ونوناً وعينا . ومدَّ - عَههُ بما خصَّه من استجلاء عرائس الحور العيين بمجاهدته إذا شغل
سواه عَيْناً من أسماء وعينا . وسطَّ - آثاره مآثره محكمةً على صفحات الأيام إذْ لم
يُذِقَ لمن سلف من الملوك أثراً ولا عينا .

أبو حيدرات التوحيدي الشافعي